

تاريخ القدس قبل الإسلام

تاريخ القدس قبل الإسلام

* نشأة «القدس» دينية منذ بداية التاريخ:

□ نعم.. فالقدس واقعة على سلسلة جبال، ومحيط القدس قاحل، لا سهل فيه، ولا ينابيع. فهي ليست بمركز زراعي، وليست على بحر ولا على طريق تجاري.

ومع هذا كله فإنك تجد فيها خيرات الأرض كلها، بل تجد فيها المنتجات الزراعية الصيفية في فصل الشتاء.

□ فالمدينة لم تنشأ في أصل نشأتها للأسباب التي تنشأ لها المدن والقرى: وأسباب نشوء المدن والقرى: البحر، والنهر، والماء، والزراعة، وطرق التجارة.. أما بيت المقدس فليس لها واحدة من هذه الميزات..

فكيف أصبحت مدينة تتزاحم الناس فيها، ويشدون الرحال إليها؟

قبل أن نجيب يكفي نظرة إلى مكة والقدس، وما بين المدينتين من تشابه وتقارب في طبيعة المكان، وحكمة النشأة:

مكة في واد غير ذي زرع... فجعل اللَّه قلوب أفئدة من الناس تهوي إليهم.. وجعل اللَّه مكة في مكان مجدب لا زرع فيه، ولكنه خلق أخصب بقاع الجزيرة ـ وهي الطائف ـ مجاورًا لها.

□ وهذا حال مدينة القدس: فالزمن الذي تأسس فيه بيت مكة، هو الزمن الذي تأسس فيه بيت المقدس... وهناك وادٍ غير ذي زرع، وهناك جبل غير ذي زرع...

وهناك أفئدة من الناس تهوي إلى ساكن مكة، وهنا جعل اللَّه أفئدة من الناس تهوي إلى بيت المقدس.

- وهناك خلق اللَّه الطائف على مرمى حجر من مكة، وهنا خلق اللَّه أرضًا تجاور القدس، بارك فيها بركات الدين والدنيا.

- نعم، ليس في المدينتين ما يبهر النظر من متاع الدنيا، ولا يقصدهما القاصد من مكان بعيد لطلب مال أو استجداء عطاء أمير، إنما يقصدها للعطاء من رب الأرض والسماء.

العرب أول من سكن القدس... والقدس كانت تعرف التوحيد قبل قدوم خليل الرحمن عليه السلام:

لا شكَّ أن القدس كانت مسكونة، أو كانت مقصد البَشَر منذ زمن بعيد مُوغل في القدم، لا يعلمه إلا اللَّه؛ لأن المسجد الأقصى أسس في الزمن الذي أسس فيه البيت العتيق في مكة، وثبت أنَّ البيت العتيق كان مؤسسًا قبل إبراهيم عليه السلام بزمن طويل لا يعلمه إلا اللَّه.

ولكننا لا نملك تأريخًا للأمم التي سكنت القدس إلا في حدود ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد (٣٥٠٠ق. م)... وهو تاريخ أولى الهجرات الكنعانية، التي اتجهت من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقي. ومن بطون العرب الكنعانيين الذين هاجروا إلى فلسطين «اليبوسيّون» وهؤلاء هم الذين سكنوا القدس وعمروها، ولم يعرف التاريخ المدون شعبًا قبلهم سكن القدس[1] . ونسبةً إليهم سميت القدس

(١) انظر: «تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم» محمد عزة دروزة ص(١٥٣).

«يبوس». وجاء اسم يبوس في الكتابات المصرية الهيروغليفية باسم «يابثي» و«يابتي» وهو تحريف للاسم الكنعاني.

فهذا من المتفق عليه بين المؤرخين أنّ أول من سكن بقعة القدس الشريف قومٌ من اليبوسيين من بطون العرب الأوائل في الجزيرة العربية؛ لأنهم أحد فروع الكنعانيين، والكنعانيون من العرب بالاتفاق بين المؤرخين، فقد ذكر المؤرخ العربي ابن جرير الطبري الكنعانيين في تاريخه وقال: إنهم من العرب البائدة، وأنهم يرجعون بأنسابهم إلى العمالقة، فقال: عِمْليق أبو العماليق، كلهم أمم تفرقت في البلاد، وكان أهل المشرق وأهل عُمَان وأهل الحجاز وأهل الشام منهم...

ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يُقال لهم «الكنعانيون» (١/ ٢٠٣). وقال ابن خلدون: وأما الكنعانيون الذين ذكر الطبري أنهم من العمالقة كانوا قد انتشروا في بلاد الشام وملكوها، وقال: «أول مُلْكٍ كان للعرب في الشام فيما علمناه للعمالقة».

واتفق المؤرخون من أعداء العرب وأصدقائهم: أن الكنعانيين جاءوا إلى بلاد الشام من شبه الجزيرة العربية، ونسبةً إلى هؤلاء الكنعانيين دُعيت فلسطين بأرض كنعان، فكان أقدم اسم سُمّيت به بلادنا.

وقد احتلَّ اليبوسيون التلال المشرفة على المدينة القديمة، وبنوا قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من يبوس، سُمّيت حِصْن يبوس، الذي يُعَدُّ أقدم بناءٍ في مدينة القدس، أُقيمت حوله الأسوار، وبرج عالٍ في أحد أطرافه للسيطرة على المنطقة المحيطة بيبوس للدفاع عنها وحمايتها من غارات العبرانيين، والمصريين الفراعنة بزعامة ملكهم سالم

اليبوسي[١]، وعُرِف حصن يبوس فيما بَعْدُ بحصن صِهْيون، ويعرف الجبل الذي أقيم عليه الحصن بالأكمة، أو هضبة أوفل.

وقد أثبتت نتائج الحفريات أن المدينة اليبوسية، كانت شرقي أسوار الحرم القدسي وعلى السفح المنحدر إلى وادي قِدْرون (جهنم) ولم تكن على جبل (موريا) حيث يقوم الحرم الشريف.

❑ وهذا يوحي بأن بقعة المسجد الأقصى كانت موجودة ومعروفة، ولذلك سكن اليبوسيون بجوارها، ولم يسكنوا فيه؛ لأنها محل للعبادة.

ومن أقدم ملوك اليبوسيين الكنعانيين في القدس «ملكي صادق» الذي عقد صداقةً مع إبراهيم الخليل عليه السلام، مما يدل على أنه كان من الموحدين العابدين للَّه تعالى.

❑ وكانت الهضبة المسطَّحة التي تتوّج جبل «موريا» المكان الذي وجد فيه إبراهيم عليه السلام الرجل الأصيل (مَلْكي صادق)، ملك أورشليم، يعبد اللَّه العليّ، ويقوم بقرى الضيوف فيقدم لإبراهيم الخبز والنبيذ، ثم يباركه «باسم اللَّه العلي» أيضًا.

فمدينة القدس: كانت تعرفُ عقيدة التوحيد، قبل أن يقدم إبراهيم

---

(١) وسالمٌ هذا: أول من حكم القدس، فسميت باسمه، أو أضيفت إليه فقيل (أور+سالم) يعني بلد سالم. وعندما قدم سيدنا إبراهيم إلى فلسطين، كان ملكها اسمه «ملكي صادق» وسالم، وملكي صادق كما يظهر من اسمهما أنهما من العرب. والحقُّ ما شهدت به الأعداء، فقد سجل اليهود في توراتهم أن ملكي صادق كان ملك شليم (القدس) في زمن إبراهيم عليه السلام، وأن ملكي صادق ابتهج لانتصار إبراهيم على خصومه، وتصدَّق بخبز وخمر؛ لأنه كان كاهنًا للَّه، ويفيد هذا أن ملكي كان موحدًا وربما كان نبيًّا. وبهذا تكون فكرة التوحيد ـ توحيد اللَّه ـ قائمة في فلسطين والقدس، قبل قدوم سيدنا إبراهيم، وهذا يدل على وجود المسجد الأقصى المبارك قبل قدوم سيدنا إبراهيم.

الخليل إلى فلسطين؛ لأن اللّه تعالى أمر بوضع المسجد الأقصى فيها لعبادته، وكان الناس يقصدونه للعبادة؛ ولأن ملكي صادق ـ ملك اليبوسيين ـ، اتخذ بقعة المسجد الأقصى مكانًا لعبادته.

ويزعم بعض المؤرخين تبعًا لليهود، أن ملكي صادق هو لقب سام ابن نوح وهذا لا يصح؛ لأن بين سام بن نوح وبين إبراهيم أزمنة طويلة فقد ذكر القرآن بعد نوح: النبي هودًا عليه السلام، والنبي صالحًا عليه السلام.

... وعلى هذا تكون القدس أقدم بقعةٍ على الأرض عرفت عقيدة التوحيد بعد مكة المكرمة شرفها اللّه... لأنَّ ملكي صادق الذي التقى إبراهيم حوالي سنة ١٨٠٠ق. م كان موحدًا، ولأن سيدنا إبراهيم الذي جاء إلى فلسطين دعا إلى التوحيد، ولقي في أهل فلسطين استجابة.

ومما يجدر أن ننبه إليه، ونوضحه: أن المؤرخين ينسبون إلى إخناتون الفرعوني (أمنحوتب الرابع ١٣٧٧ ـ ١٣٥٨ ق م) أنه دعا الناس إلى عبادة إله واحد (ويجعلون له الأولوية والأقدمية) بدون دعوة نبي. ولكنَّ وحدانية أخناتون، لم تكن دعوة إلى توحيد الإله الخالق الرازق الذي يرىٰ الناس ولا يرونه، وإنما كانت دعوةً إلى توحيد إله مادي منظور ومحسوس، فقد كان المصريون قبله يعبدون عددًا من الآلهة المنظورة المحسوسة، فدعا إلى عبادة إله واحد هو «أتون» أو «قرص الشمس»، ونبذ جميع الآلهة الأخرى، فهذا كمن يُفردُ صنمًا واحدًا لعبادته.. وشتان بين عبادة الإله الذي دعت إليه الأنبياء وبين عبادة الإله الواحد المادة المحسوس...

إِخناتون للتوحيد داعٍ قديمًا قبل كل المرسلينا
إِخناتون عابد قرص شمسٍ بزعم الكفر شيخ المسلمينا

◘ وقد كشفت التنقيبات الأثرية التي قامت بها الباحثة الإنجليزية كاثلين سنة ١٩٦١م في طبقات العصر البرونزي القديم من أكمة «أوفل» بالقدس عن بقايا السور الأول الذي بناه اليبوسيون على جبل صهيون، وأبرزت قسمًا من أسس الأبنية وتمديدات جر المياه إلى الحصن من عين أم الدرج (جيحون). [الموسوعة، مادة القدس].

◘ فملكي صادق ملك أورشليم العربي موحّد بنص التوراة.

فالتوراة نفسها تتحدث عن «أورشليم» لأول مرة في زمن إبراهيم «حوالي سنة ١٩٠٠ ق.م» وكان اسمها (شاليم) فقط. وكان ملكها من سكان فلسطين الأصليين، ويبدو من السياق أنه كان يحكم دينيًّا، تقول توراتهم (سفر التكوين ١٤/ ١٨):

«ومَلْكيصدك ملك شاليم أخرج خبزًا ونبيذًا!!(١)، وكان كاهنًا للَّه العلي، وباركه، وقال: مُبارك أبْرام من اللَّه العلي مالك السماوات والأرض». فأورشليم (القدس) كانت مدينة مباركة من اللَّه العليّ من قبْل داود، بل من قبْل إبراهيم أيضًا.

* فتح بني إسرائيل للقدس على عهد نبي اللَّه يوشع بن نون عليه السلام:

وعلى عهد يوشع بن نون خليفة موسى (حوالي سنة ١٤٥٠ق.م)

---

(١) هكذا... لعن اللَّه اليهود كم حرّفوا وبدّلوا.

كان بنو إسرائيل قد أصبحوا بعشائرهم التي تهدّد أمن المدن الفلسطينية خطرًا يُحسَب حسابه، ويؤكد ذلك نص تل العَمارنة الذي أشرنا إليه. لذلك نجد تحالفًا يُعقد بين أمراء الفلسطينيين على أثر انتصار يوشع بن نون في أريحا وعاي وجِبْعون (يوشع ١٠/٣ ـ ٤). «فأرسل أدونيصدق ملك أورشليم إلى هوم ملك حَبْرون ـ الخليل ـ وفرآم ملك يرموت، ويافع ملك لكيش، ودبير ملك عجلون». ولكن يوشع عليه السلام ترهبه كل فلسطين، فتخضع له بعض البلاد ويحاربه البعض الآخر، ويُصالحه فريق من «الخائفين» على امتيازات معيّنة يتنازلون عنها لبني إسرائيل.

□ وكانت (أورشليم) من المدن الفلسطينية التي قاومت بني إسرائيل قرونًا طويلة.

فمثلاً نجد يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ نفسه يجعلها في نصيب قبيلتي بنيامين ويهوذا من أسباط بني إسرائيل، ولكنهما لم يستطيعا ـ ولمدة طويلة جدًا ـ طرد سكانها الأصليين (اليبوسيين) إحدى القبائل الفلسطينية القديمة.

□ وأما اليبوسيون الساكنون في أورشليم فلم يَقْدِر بنو يهوذا على طردهم، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم»[1].

والمقصود اليومُ الذي يروى فيه الراوية هذه الوقائع عن يوشع وبعد وفاته بمدة علمها عند الله.

وبعد موت يوشع بن نون أعاد سبط يهوذا الكرَّة على أورشليم

---

(١) يوشع (١٥/٦٣).

«وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحدّ السيف، وأشعلوا المدينة بالنار»[(١)] .

أما سبط بنيامين، فإنهم فشلوا كذلك في طرد اليبوسيين وسكنوا معهم «إلى هذا اليوم»[(٢)] .

لذلك بقيت أورشليم تسمى (يبوس) أو (مدينة اليبوسيين) كما جاء في سفر القضاة (١٩)، وفي هذا الموضع نجد نصًّا يستحق الانتباه، حين يقول في سياق القصة التي يرويها: «. . . وفيما هم عند يبوس، وقد انحدر النهار جدًّا، قال الغلام لسيده: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها، فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا».

وسنرى أن المدينة المقدسة ظلت إلى عهد داود لليبوسيين، سكانها الأصليين من شعب فلسطين.

ومعروف أن داود عاش حوالي سنة ألف قبل الميلاد، وبالتالي ظلت مدينة (السلام) من أول ما لقيناها في التوراة على أيام إبراهيم إلى تلك الفترة ـ نحو ألف سنة ـ تقاوم التسلل الإسرائيلي، والمطامع اليهودية، فلا ينال الإسرائيليون منها إلا بالتخريب والإحراق حينًا أو بالمساكنة والتعايش السلمي أحيانًا.

□ ومع داود فقط تبدأ (عُقدة أورشليم) مدينة اللَّه، ومدينة السلام، ومدينة اليبوسيين الفلسطينيين منذ ما قبل التاريخ، كما أثبتت ذلك

---

(١) «سفر القضاة» (١/ ٨).

(٢) «قضاة» (١/ ٢١).

أحدث الحفائر التي أُجريت في المنطقة[١] .

ملحــوظة: عندما جـاء الموسويون بعد موسى بقـيادة يوشع إلى فلسطين حـوالي سنة ١٢٢٠ قـبل الميـلاد، واسـتـولوا على أجـزاء من فلسطين، عجـزوا عن الاستـيلاء على القدس، وبقي «هــن يابوس» بيد أهله زهاء ثلاثة قرون بعد دخولهم فلسطين.

ظهور داود عليه السلام وتملكه على بني إسرائيل:

قلنا: إن القـدس ظلت فلسطينيـة في أيدي اليـبوسـيين إلى السنة الثامنة من حكم داود. كان داود من الجنوب، من صحراء النقب، حيث اختارت قبيلته ـ سبط يهوذا ـ تلك الجهة مسرحًا لحياتها البدوية الرَّعوية، ثم إنه انتقل إلى الشمال حيث كـان نبيٌّ بني إسرائيل (صموئيل) قد توَّج شاؤول أول ملك على كل الشعب، وكان داود قد أُلحق ببلاط شاؤول.

وفي هذه الآونة كان سكان البـلاد الأصليين «الفلسطينيين» يريدون التخلص من الوجـود (الإسرائيلي) في بلادهم. وكانت الحـرب سجالاً بينهم وبين الإسرائيليـين، وبرز من الفلسطينيين بطلٌ عِمْلاقٌ مـخيف هو (جالوت) استطاع داود أن يقـتله بحَجَر أطلقه من مـقلاع، وأصبح داود ملكًا بعد طالوت فأراد أن يترك الشمال إلى نقطة حصينة أكثر توسطًا من حيث الموقع، فـوجد مطلبه هذا في (مـدينة اليبوسـيين) أورشليم، فهي قريبة من ديار سِـبط يهوذا وهم عشيرة داود، وهي وعِـرة المسالك للقادم من الأردن، أو من البحر أو من الشمال على السـواء، وهي حصينة غير

---

(١) «القدس» لحسن ظاظا ص(٤٧ ـ ٥٠).

مكشوفة للغُزاة، ثم إنَّها بعد كل هذا في وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو أنهم كانوا أكثر ميلاً إلى المسالمة من أهل الشمال.

* استيلاء داود على القدس من اليبوسيين:

بدأ داود بالاستيلاء على جبل صهيون، وكانت فيه قلعة أماميَّة لليبوسيين يدافعون منها عن القدس، وكانوا يسمُّون جبل صهيون بالمنشئات القائمة عليه (المدينة الفوقانية) بالنسبة لهضبة الحَرَم (جبل مُوريا) التي كانوا يسمونها (المدينة التحتانية). استولى داود إذن على (المدينة الفوقانية) وحصّنها وجعلها قاعدة لحكمه، ولمّا كانت أسرته هي سِبط يهوذا، فمنذ هذا الوقت بدأ الإسرائيليون يُسمَّون باليهود أيضًا، ولمّا كان داود على طريقة أمراء بني إسرائيل ورؤسائهم في العصور القديمة، وعلى طريقة الكثير من الحكام القدماء، يستمدُّون سلطتهم من «اللَّه» فقد جعلوا صهيون مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعًا. ولم يجد غُلاة المتعصبين من اليهود في العصر الحديث تسمية أكثر سحرًا في آذان فقراء اليهود وبسطائهم من (الصهيونية)، وما تقترن به من قوة داود وشدة شكيمته، وأُبَّهة سليمان وبهاء عظمته وفخامته على عرشه الأسطوري العجيب، فاختاروها اسمًا وشعارًا.

تملّك داود على اليهود حوالي سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد وتمكنوا فيها من دخول القدس. تُوفّي داود سنة ٩٦١ق.م، ودام ملكه ما بين (٩٦١ ـ ٩٢٢ ق.م). وعندما استولى داود عليه السلام على القدس، لم يغادرها أهلها، بدليل ما جاء في الآثار الإسلامية والعبرية أنه عندما أراد داود عليه السلام أن يعدّ مكانًا للعبادة، أو أراد أن يزيد في البقعة،

اشترى بيدر أحد اليبوسيين «أرونة اليبوسي» ليبني عليه مذبحًا (معبدًا)، ولكن اللَّه تعالى لم يكتب له أن يكون البناء على يديه، والمعروف أن داود أصبح ملكًا على بني إسرائيل، وكان عمره لا يزيد على ثلاثين عامًا، ومعنى هذا أنه تملّك قبل أن يوحى إليه، فلما بلغ من العمر أربعين سنة آتاه اللَّه النبوة والملك، وأرسله إلى بني إسرائيل، وأنزل عليه الزبور.

يعني هذا أن داود عليه السلام جعل قاعدة ملكه في أول تمليكه، في جهات الخليل، ثم فتح القدس بعد حوالي سبع سنوات ٩٩٠ق.م، وتكون نبوته بعد فتح القدس.

* الصخرة التي بنى عليها داود مذبحًا للرب؟

ظل داود يضغط على اليبوسيين، ويضايقهم في جبلهم (مُوريا)، ويريهم صنوف الإذلال، وهم يرحلون تاركين له ديارهم حتى لم يَبقَ إلا مسطح القمَّة ـ مكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة ـ ملكًا لليبوسي (آرونا) يتخذه جرنًا ومربضًا لماشيته، فاشتراه منه داود بما فيه من المواشي، وقالوا في عَنعنات شفوية يهودية لا يقوم عليها أي دليل: إن داود جعل من الصخرة التي على الهضبة مَذْبحًا للربِّ. وصاغوا حول ذلك أساطير لا تكاد تنتهي، حتى قالت بعض نصوص التلمود (توسفتا ـ يوما / ٨٤,٨): «إن اللَّه تعالى خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة»، وقال أحد أحبارهم وهو إليعازر البابلي: «إن الصخرة هي أصلُ خلق الأرض، وإن صهيون هو سُرَّة العالم، وهو كامل الجمال والبهاء» (التلمود البابلي ـ يوما/ ٥٤).

وجـاء في كـتـاب (الزوهر) وهو من كـتب التـصـوُّف اليـهـودي المشـهورة: «إن يعـقوب نـام على الصخـرة، وهو منطلق من بيت أبيـه (إسحاق)، بينما المعروف أنه نام في (بيت إيل) قرب نابلس. ولكن هذا التحريف يهدف إلى نقل قدسية (بيت إيل) المجـاورة لنابلس، والتي ظل اليهود السامريون على وفائهم لها كقبلة ليعقوب، إلى أورشليم.

□ والحقُّ أننا لا ندري أية صخـرة يعني اليهود، فالتلمـود يذكر أن الصخـرة التي يقدِّسونهـا ترتفع عن مستـوى سطح الأرض ثلاثة أصابع (التلمود ـ يوما/ ٨٥ ـ ٣، ٤، تـوسفتا ٨٣/٦، وموسى بن مـيمون في كتابـه «طُقُوس يوم الغفران»). بينمـا الصخرة الموجودة حـاليًا ترتفع عن مستـوى سطح الأرض بنحو متر كامل، ومـحيطها يناهز العشـرة أمتار، وتحتهـا فجوة هي بقية مـغارة قديمة عمقـها أكثر من مـتر ونصف، تبدو الصخرة فـوقها وكأنها مـعلقة بين السماء والأرض، وبين الصـخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار.

ومن الذين شكُّوا في أن تكون الصخرة الشريفة هي الصخرة المعنية في التلمود، البـاحث الألماني «شيك» في أوائل هذا القرن، فهـو يقول: «إن الصخرة الحالية رُبما كانت على أكثر تقْدير إحدى ركائز المذبح الخاص بالقرابين فقط، ولم تكن في يومٍ ما داخلة ضمن قُدس الأقداس».

أما صخرة اليـهود التي يسمونها حسب أساطيـر التلمود التي أشرنا إليهـا (إيبن هاشتيـا) ـ أي: حجر الأسـاس ـ فاللَّه أعلم مـاذا صنع بها بختنصر، وأنطيـوخوس أبيفانوس، وتيتوس، وفِـسبازيان، وهدريان[١]،

---

(١) هذه الأسماء هي لأولئك القـادة والملوك الذين أنزلوا باليهود أشد العـقوبات في تاريخهم القديم.

والصليبيون، وغيرهم ممن دمروا أورشليم مرارًا وتكرارًا تدميرًا كاملاً.

* مدينة داود ... بعد داود:

رحل داود عليه السلام الذي بنى المجد لليهود رحل عن دنيا البشر للقاء ربه، فماذا يقول اليهود عنه في توراتهم المحرفة: قالوا: إن داود عليه السلام زنى بزوجة رجل من قوّاد جيشه، ثم دبّر حيلة لقتل الرجل فقُتِل، وبعدئذ أخذ داود الزوجة وضمها إلى نسائه، فولدت له سليمان[1].

* الملك سليمان وعنايته الفائقة بعاصمته وبناؤه القصر والهيكل وسور المدينة:

ورث سليمانُ داودَ، وكان ملكًا يحبُّ الفخامة ويميل إلى حل مشاكل السياسة والاقتصاد حلولاً دبلوماسية، لا يلجأ فيها إلى قوة السلاح، فصاهر جيرانه مبتدئًا بالقصر الفرعوني في مصر إذ تزوّج ابنة فرعون، ثم غيرها وغيرها من بنات الملوك والحكام المحيطين بمملكته الصغيرة.

وحاول أن يجعل عاصمة ملكه ـ أورشليم ـ لا تقل عَظَمَةً وعمرانًا عن العواصم الكبرى في الشرق في زمانه، فبدأ بتشييد سور فاخر حول المدينة، ثم أخذ في بناء المعبد الكبير ـ الهيكل ـ الذي كان أبوه داود قد بدأه قبل موته. لقد سيطر هذا الهيكل على نفوس اليهود وخيالهم بعد تدميره واندثاره، وحتى الآن اقترنت أورشليم به، وتقدَّست لدى اليهود من أجله، وإذا ذكر اسمها فالمراد هو أولاً وقبل كل شيء. وما كتبه

(١) «سفر صموئيل الثاني» إصحاح (١١) عدد (١).

الكتاب والأحبار من شَطَحات خيالهم حول ذلك شيء تضيق عنه مئات المجلدات، بحيث كان كل اليهود في حاراتهم القذرة وأسمالهم البالية، على الثلج، وفي الوحل، يعيشون في هيكل أورشليم مع سطور التلمود ومع كتابات الأحبار، وكانت صيغة المعايدة الدائرة على ألسنتهم - وبخاصة في عيد الفصح - هي: «السَّنَةُ القادمة في أورشليم»، وهو شعار استغلته الصهيونية، وكَهربت به أعصابهم، وأعطته كل المعاني الحربية والعسكرية الممكنة.

* الهيكل في ذهن اليهود وشطحاتهم:

ولنذكر نموذجًا واحدًا من هذه الشطحات الكهنوتية اخترناه من كتاب التصوف اليهودي (الزوهر) (٢/ ٢٢٢): «عند خلق العالم، ألقى اللَّه حجرًا كريمًا من عرشه العظيم في الفضاء المُظلم، فغَطَس فيه جزء من هذا الحجر وبرزت بقيته فوق السديم، وهذه البقية البارزة كنقطة في هذا الفضاء اللانهائي بدأت تمتد في كل الاتجاهات عن يمين وشمال، وأُرسيت الدنيا عليها، ولذلك يسمى هذا الحجر (حجر الأساس).

وكان تكوين الأرض حوله على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى عبارة عن منطقة مستديرة حول الحجر نورانية شفافة، والثانية من حولها مصنوعة من مادة أقل شفافية ولكنها أكثر رِقة من الأرض، والثالثة أرض مُعتمة يطوقها المحيط الذي يدور حول العالم.

وهذه المناطق الثلاثة ممثلة في الهيكل الذي في أورشليم: فالمنطقة النورانية وهي النقطة العُظمى، عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم، والثانية الأقل شفافِيَة، هي الأرض المقدسة (فلسطين)، والثالثة المُعتمة

هي بقية العالم، حيث تسكن الأمم غير اليهودية من الكفار. أما المحيط الذي يدور بكل شيء فهو مملكة الجنِّ التي تحيط بالعالم.

ولم ترَ الدنيا قط شيئًا أجمل من ستائر تابوت العهد، وعندما أُدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بآية المزامير (١٣٢/ ١٤): «هذا مستقري إلى الأبد، وهنا سوف أُقيم، وكان صوت الروح القُدس يردد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل».

* **اليهود قوم بهت:**

ماذا قال الملاعين إخوان القردة والخنازير عن نبي اللَّه سليمان عليه السلام باني هيكلهم الذي يذرفون دموع التماسيح عليه عند حائط المبكى:

قالوا: «إن سليمان ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد»[١].

أقيم الهيكل في داخل سور يحيط بكل جبل الهيكل.

ويرجح كثير من الأثريين وفي مقدمتهم الأثري الفرنسي (دي سولسي) في كتابه «تاريخ الفن اليهودي» أن الهيكل الذي بناه سليمان كان في داخل سور يحيط بكل جبل الهيكل، بدليل أن الهيكل الذي بناه اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي في المكان نفسه، وبعد سليمان بنحو خمسمئة سنة أخرى كان يحيط به سور أيضًا، وكذلك الهيكل الذي عمَّره هيرودس بعد ذلك بخمسمئة سنة أخرى، ثم الحرم الإسلامي الشريف الذي قام أخيرًا في المنطقة نفسها التي كان «مَلْكيصدق» يدعو

(١) «سفر الملوك الأول»، إصحاح (١١) عدد ٥.

فيها باسم اللَّه العليّ في زمن إبراهيم.

ويبدو أن السور الذي كان يحيط بمنطقة الهيكل على أيام سليمان، كان مربعًا طول ضلعه مئة وثمانون مترًا (فتكون مساحة ما يحيط به السور نحو ثمانية أفدنة إلا ربعًا). وبهذه المناسبة يذكر الأثري الفرنسي (دي سولسي) مقاييس الحرم الإسلامي الشريف في المنطقة نفسها، وفي العصر الحديث كما قاسها هو بنفسه، وهي: الضلع الشرقي لسور الحرم وطوله ٣٨٤ مترًا، والضلع الجنوبي طوله ٢٢٥ مترًا، ثم يمتد الضلع الغربي بزاوية منفرجة وفي خط غير مستقيم، بحيث يكون الضلع الشمالي من السُور أطول بكثير من مقابله الجنوبي. وينبني على ما ذكره (دي سولسي) أن تكون مساحة الحرم الشريف أكثر بكثير من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان، أو نحميا، أو هيرودس.

* لا دليل على أن الحرم الإسلامي بُني فوق مكان الهيكل:

هناك أيضًا أمر يستحق الانتباه، وهو أن الحَرَم الإسلامي الشريف مستطيل، واتجاهه من الشمال إلى الجنوب (في اتجاه القبلة بمكة المكرمة)، أما معبد سليمان فهو مستطيل لكن اتجاهه من الغرب إلى الشرق (نحو الشمس)، وهو الاتجاه العام في المعابد القديمة في بابل، أو مصر أو غيرهما من أقطار الشرق الأدنى والأوسط.

إذن فلا يمكن التسليم بسذاجة برأي من يدَّعون أن الحرم يقوم تمامًا على ما كان سابقًا يُسَمَّى هيكل سليمان، حتى لو سلمنا أن الهيكل كان في هذا الركن بالذات من الجبل، وهذا لا دليل عليه إلا العَنْعَنات التي اتخذت في نفوس البعض منزلة مقدسة لتكرارها عبر الأجيال.

* انقسام اليهود بعد سليمان ودخول الفاتحين للقدس مرارًا:

وما كاد سليمان يَلقَى ربه حتى حدَثت حرب أهلية بين الأسباط وانقسمت المملكة شطرين، وأصبح الهيكل وأورشليم قِبلةً لنصف بني إسرائيل فقط.

ولم تدم مملكة اليهود التي قامت على يد داود عليه السلام إلا حوالي تسعين سنة من حوالي (١٠٠٠ ـ ٩٢٢ق.م) حيث تمزقت بوفاة سليمان عليه السلام، وتقسمت إلى مملكتين: الأولى تسمى مملكة إسرائيل وعاصمتها شكيم، والثانية دولة يهوذا وعاصمتها أورشليم (القدس)، أما دولة يهوذا فقد تتابع عليها عشرون ملكًا يهوديًّا في نحو ٣٣٧ سنة أكثرهم مات قتلاً بأيدي قومهم، وكثير منهم كان أُلعوبة بأيدي المصريين أو العراقيين(١).

□ ثم تعرضت القدس مباشرةً لهجوم الجيش المصري الفرعوني (حوالي سنة ٩٧٠ق.م)، وهي تحت حكم (رَحَبْعام بن سليمان)، وتوالت عليها بعد ذلك الهجمات المتلاحقة: من الأدوميين في الأردن، إلى العرب، إلى الآراميين، إلى الإسرائيليين في مملكة الشمال، عندما هاجم يهوآش ملك إسرائيل أمِصيا ملك أورشليم ويهوذا، وهَدَم

(١) وهؤلاء الملوك لم يكونوا جميعًا من الموحدين، ويشهد على هذا حَبرٌ من أحبارهم وعارفٌ بأخبارهم، هو السموأل بن يحيى المغربي الذي أسلم وكتب رسالته «إفحام اليهود» حيث يقول: «فأشُدُّه على اليهود من جميع هذه الممالك ما نالهم من ملوكهم العصاة مثل أحاب، وأحزيا... الذين قتلوا الأنبياء، وبالغوا في تطلبهم ليقتلوهم وعبدوا الأصنام، وأحضروا من البلاد سدنةً للأصنام وابتنوا لها البيع العظيمة والهياكل وعكف على عبادتها الملوك..» ص(١٤٤).

أسوارها، وأخذ ما في الهيكل من الذهب والفضة والأواني، ونَهَب القصر وأخذ بعض الرهائن وعاد إلى السامرة (الملوك الثاني ١٤/ ١٤).

وتكرر الزحف المصري على أورشليم في حكم الفرعون نخاو، وكان ملك يهوذا يهو آحاز (حوالي ١٦٠ ق.م).

❑ ثم انتعشت أورشليم في عهد الملك عُزِيَّا الذي حكم أكثر من نصف قرن من الزمان، وكان مهتمّا بتحصينها، فبنى حولها أبراجًا، وحفر آبارًا، وأنشأ البساتين والحدائق (أخبار الأيام الثاني ٢٦). واستمر إنشاء البوابات والتحصينات على عهد ابنه يوثام.

❑ وتبلور الخَطَر الآشوري على القدس في عهد سنحاريب الذي كان معاصرًا لحزقيا ملك يهوذا، فأخذ هذا الأخير في زيادة التحصينات بالقدس، وقام بردَم آبار الماء التي في خارجها حتى لا ينتفع العدو بها، وكذلك الجداول الجارية منها، ودعَم السور في المواضع المتهدمة منه، وحصن قلعة داود على جبل صهيون، وقام بمشروع هندسي ناجح أجرى به مياه نهر جيحون الذي يجري جنوبًا خارج القدس تحت الأرض إلى داخل المدينة، وأنشأ صهاريج للماء، وهكذا استطاع أن يواجه الحصار الآشوري دون أن يضطر إلى الإذعان.

* بختنصر البابلي يدمّر القدس ويُخَرِّب الهيكل:

كان بُختنصر ملك بابل يحاول أن يسوي حسابًا قديمًا مع فراعنة مصر، ولكنه في كل مرة يجد عقبةً ما في فلسطين تظهر له فجأة من قِبَل اليهود فيبوء بالفشل، وأخيرًا (سنة ٥٨٨ق.م) هاجم القدس بعد أن كان استولى على أهم أجزاء فلسطين، ومنها غزة في أقصى الجنوب، وكان

ملك يهوذا في ذلك الوقت (صدقياهو)، ولما سقطت القدس بعد مقاومة رهيبة أحرقها الجيش البابلي وخربها ونهبها، وأخذ معظم أهلها أسرى إلى العراق حيث بقوا هناك سبعين عامًا.

يقول محمد حسن شرّاب في كتابه «بيت المقدس» ص(٥٩ ـ ٦٠):

«وفي عام ٦٠٥ق.م زحف بختنصر البابلي، إلى أن وصل إلى القدس وأخضع ملكها «يهو ياقيم» وخضعت المملكة اليهودية للبابليين. ولما ثار «يهوياقيم» على أسياده دخل بختنصّر وجيشه أورشليم، وعين مكانه أخاه «يهو ياكين»، [٥٩٨ ـ ٥٩٧ ق.م]، وفي أثناء ملكه القصير، حاصر نبوخذ نصّر أورشليم، وأخذ الملك مع عائلته، ورؤساء اليهود، وبعض خزائن بيت الرب والمدينة إلى بابل. قال مؤلف جغرافية الكتاب وتاريخه: «وسقطت القدس نفسها في السنة ٥٩٧ق.م أمام جيش نبوخذ نصّر. ونُقل الملك (يهو ياكين) وما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من سراة القوم وصناع الأيدي (والمجموع ما بين ٣٠، و٤٠، ألفًا) إلى بلاد بابل وكان غرض نبوخذ نصّر أن يخلّي البلاد من قوادها وكل الذين بإمكانهم أن يوقدوا ثورة. والذين بقوا من يهوذا، ملّك عليهم، صدْقيا أحد أبناء يوشيا (٥٩٧ ـ ٥٨٦ق.م) [القدس ـ للدباغ ص٥٢].

وفي أواخر حكمه تمرد على سيده، فأرسل بختنصر جيشه إلى القدس فأُسر الملك وسيق إلى بابل.. وخرّبت أورشليم وجُعلت أكوامًا من الأنقاض، وانتهت دولة يهوذا»[1].

---

(١) إن المتأمل في آيات سورة الإسراء (آيات ٤ ـ ٨) يجد تلخيص مراحل حياة بني إسرائيل.
(أ) ﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ هي: مجيء بختنصر. (ب)﴿ثم رددنا لكم الكرّة﴾. =

* «كورش» ملك الفرس يسمح لليهود بالعودة إلى القدس:

☐ وفي سنة ٥٣٩ق.م تمكن كورش ملك الفرس من الاستيلاء على بابل، وتمَّ له الاستيلاء على بلاد الشام، وكان اليهود قد ساعدوه حين فتحه بابل، فالتمسوا منه أن يأذن لهم بالعودة إلى أورشليم فوافقهم على طلبهم. وسمح لهم على الفور بعودتهم إلى فلسطين، وتأسيس وطن قومي تحت رعايته وحمايته داخل ملكه وسلطانه، فعاد كثير منهم برئاسة يوشع بن يوصدق وزرو بابل[1] بن شلتئيل، وبعدهما بثمانية عشر عامًا جاء عَزْرا ونَحِمْيا الذي أخذ في إعادة بناء هيكل سليمان (يقول الرواة: بصورة أقلّ فخامة)، ولعل ذلك من فرط إعجابهم الخيالي بهيكل سليمان فقط.

كل هذا تحت الحكم الفارسي الذي استمر حتى (ما بين ٥٣٨ ـ ٣٣٢).



= (عودتهم أيام كورش). (ج) ﴿**فإذا جاء وعد الآخرة... عسى ربكم أن يرحمكم..**﴾ هي مجيء الإسكندر إلى القدس دون أن يقتلهم. (د) ﴿**وإن عدتم عُدنا...**﴾ أي: إن عدتم إلى الفساد، عُدنا إلى الإدالة عليكم... وهذا يدلُّ على تكرار إفسادهم، وتكرار عذابهم بإذن اللَّه، وقد كان ذلك أيام طيطس سنة ٧٠ م، وأيام هدريان سنة ١٣٥م، وأيام هرقل سنة ٦٢٧م، وقد انتقل إفسادهم بعد ذلك إلى المدينة النبوية فكان ما قضى اللَّه إلى بني إسرائيل.

(١) أي: المولود في بابل.

الهيكل الثاني

* كيف تم بناؤه ومتى؟ :

كان هَمُّ العائدين من السبي الذي دام سبعين سنة أن يبسطوا سلطانهم مرة أخرى على فلسطين، وأن تقوم لهم دولة، تحت وصاية (قورش) إمبراطور إيران في القرن الخامس قبل الميلاد، وأن تكون هذه الدولة قَنطرة للتوسع العسكري الفارسي في الشرق الأوسط، الذي انتهى باستيلاء قَمبيز على مصر نفسها. وإذا كان السادة الفرس لم يُعطوا اليهود «وطنًا قوميًّا» إلا بشروط معينة، خلاصتُها الولاء التام والتبعيَّة المطلقة لسياستهم بخيرها وشرها، فإن اليهود أرادوا أن يعيدوا بناء أورشليم، وتشييد هيكل سليمان، حتى تكون هذه الواجهة أمام الناس تعميةً على التبعية التي رضخوا لها صاغرين، ولقد حاولوا جاهدين أن يبنوا الهيكل الثاني على المخطط نفسه الذي بُني عليه الهيكل الأول هيكل سليمان، وانتهى البناء في عهد (دارا الأول) الفارسي.

كان الذين عادوا من السبي نحو أربعين ألف يهودي أو يزيدون قليلاً، وكان على رأسهم (يوشع بن يوصدق) و(زروبابل بن شلتئيل)، فبدأا ببناء مذبح للمُحرَقات في الهواء الطلق على جبل الهيكل الذي كان وقتها خرابًا، وفي اليوم الأول من الشهر السابع من عودة اليهود من بابل إلى فلسطين كانت الطقوس تقام أمام هذا المذبح.

ثم لما لَحِق (عزرا) و(نَحمِيْا) بالعائدين إلى فلسطين من اليهود، بدأت أعمال البناء والتحصين وإقامة أسوار أورشليم تتخذ شكل الإنجاز النشيط، رغم بعض العقبات التي كانت تقيمها الحكومة الفارسية من

حين لآخر، ورغم مقاومة غير منظمة قام بها أمراء حَوْران وعمان والجزيرة العربية والفلسطينيين المتمركزين في أشدود (سفر نحميا، الإصحاح الرابع وما بعده).

* فلسطين تحت حكم الإسكندر:

وفي سنة ٣٣٢ق.م احتل الإسكندر فلسطين وأُدخلت تحت الحكم اليوناني، ولكن أحد أحبار اليهود وهو (شمعون بن حونيو) استطاع بدبلوماسيته أن يحوز رضا الإسكندر، وأن يظفر منه بمزيد من العناية بتجميل القدس (التلمود، يوما). وبعد موت الإسكندر (٣٢٢ق.م) حلّت الفوضى واستولى بطليموس الأول (سوتير) على أورشليم حوالي سنة ٣١٠ق.م، وأخذ كثيرًا من أهلها أسرى إلى الإسكندرية.

* تحت حكم أنطيوخوس السلوقي ملك سورية اليوناني سنة ٢٠٤ق.م:

ثم زحف عليها ملك سورية أنطيوخوس السلوقي اليوناني سنة ٢٠٣ق.م، وعاد فاستردَّها منه القائد البطلمي (سكوباس) المصري سنة ١٩٩ق.م. والظاهر أن اليهود في المدينة كانوا أميلَ إلى حُكم السلوقيين، وقد ساعدوا أنطيوخوس على دخول القلعة، كما يقول (يوسفوس)، ومباغتة المصريين فيها. وبسبب ذلك خفف أنطيوخوس الضرائب عن يهود القدس، واهتمَّ بعمارة الهيكل والمدينة وتدعيم حصن داود.

ويصف اليوناني أرسطياس المعاصر لهذه الأحداث فخامة القدس بما

يبيِّن أنها كانت مـدينة كبيرة لها أسوار عليهـا أبراج، والخدمة الدينية في الهيكل كـانت على أرفع نظام، وكان عدد السكان مـئة وعشـرين ألفًا. وتعوَّد اليـهود بعـادات اليونان، وتركوا الربَّ، وظهـرت فرقـة (ياسون) وأخيـه (منيلاوس)، وقـالا بأن منصب الحاخـام الأكبـر يجب أن يكون بالوراثة لا بالانتخـاب، وحدثت فـتنة كبيـرة، انتهزها الحـاكم السوري أنطيوخوس إبيفانس فـزحف على أورشليم سنة ١٧٠ق.م، ونهبها وذبح كثيرًا من يهودها.

وبعد ذلك بعـامين هجم قائده أبو لونيوس على المدينة مـرة أخرى فأكـثر فـيهـا من القتل والتـخريب، واقـتحم الـهيكل وأقـام فيه تمـثال أنطيوخوس، وبنـى بجواره مسرحًا للتـمثيل وأخذ معـه رهائن من يهود القدس. فقام من أمـراء المكابيين اليهود الحشمونيين (متـتياهو) ثائرًا ضد اليونان هو وأولاده الخمسة، ثم أتمَّ يهوذا المكابي هذه الثورة بطرد اليونان من الهـيكل، ومن جـزء كـبـير من المـدينة سنة ١٦٥ق.م وواصل هذا الكفاح شمـعون المكابي، ففي سنة ١٤٣ق.م. طرد الحاميـة اليونانية من قلعة داود «صهيون».

وعاد اليونان بقيادة أنطيوخوس السـابع (سيديتاس) في عهد يوحنا هيرقـانوس المكابي، فاتَّقى هذا الأخـير شـرَّه بتقديم قـوالب من الذهب استخرجها من قبر داود، يقول يوسفوس: «إنَّ وزنها كان ٧٥ طنًّا»، ثم حدث نزاع على العـرش بين هيرقانوس وأخـيه أرسطوبولوس في داخل القدس.

* احتلال الرومان لأورشليم وفلسطين:

أثناء هذه الفتنة زحف القيصر الروماني (بومبي) على فلسطين واحتلها سنة ٦٦ ق.م. وقتل من اليهود في القدس وحدها (١٢٠٠٠)، بينما كان اليهود يخربون كل شيء بأيديهم ويحرقون المدينة كلها بالنيران حتى لا ينتفع بها العدو.

وبعد مدة وجيزة كثرت الاضطرابات في أورشليم، فزحف عليها حاكم سورية الروماني (لوقيانوس كراسوس)، ودخل الهيكل ونهبه، وكان ما فيه من الذهب والفضة والآنية الثمينة يُقدَّر بنحو خمسين طنًّا.

وزار يوليوس قيصر فلسطين، فأذن لليهود في بناء الأسوار التي كان بعضها قد تهدَّم.

وفي هذه الأثناء كان هؤلاء (الأمراء) من أواخر المكابيين ما يزالون يتنازعون على السلطة، أو ما بقي لهم منها في أورشليم، وهي سلطة أخذِ الزكاة من اليهود، وإدارة القضاء بينهم، وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم... إمارة كاريكاتورية تأخذ من اليهود الزكاة بيد وتصلبهم باليد الأخرى.

❑ وانتهز هيرودس الأدومي فرصة هذه المنازعات وزحف على المدينة سنة ٣٧ق.م يساعده القائد الروماني سوسيوس، فحاصراها وصبَّا عليها قذائف المنجنيق واقتحماها وقاما فيها بمذبحة رهيبة.

وافق القيصر الروماني أُغسطس على تعيين هيرودس على القدس «وكل بلاد اليهودية»[1] ، أي النصف الجنوبي من فلسطين، فاهتم بإعادة

(١) فظل يحكمها باسم الرومان حتى السنة الرابعة الميلادية.. وفي زمانه ولد عيسى عليه السلام.

تخطيط المدينة وتدعيم أسوارها، وتزويدها بأبراج حصينة للحراسة، لا سيما في النقطة الضعيفة استراتيجيًّا من المدينة، وهي الغرب والشمال الغربي حيث أحياء القدس الحديثة الآن، فأقام في هذه الجهة برجًا سماه برج (هيبيوكسو) باسم واحد من أصدقائه قُتل وهو يحارب في صفوفه في إحدى المعارك، وهذا البرج هو الذي يُسمَّى خطأً الآن (برج داود).

وفي أقصى الزاوية الشمالية الغربية من السور بنى حصنًا في موضع حصن (البيرة) الذي أقيم بعد عودة اليهود من السبي، وكان قائمًا في عهد المكابيين ثم تهدَّم، وسمّاه هيرودس حصن (أنطونيا) على اسم صديقه وحاميه أنطونيو ـ صاحب كليوباترا ـ أما تسمية (البيرة) فهي فارسية معناها القلعة، ولم تعرفها اللغة العبرية إلا تحت حكم الفرس.

وكان هذا الحصن مربَّعًا طول ضلعه نحو تسعين مترًا، وفي داخله قصر عليه سور مربع آخر، تقوم عليه أربعة أبراج، ثلاثة منها ارتفاعها خمسون ذراعًا، والرابع ارتفاعه سبعون ذراعًا، وهو البرج الشمالي الشرقي أقرب هذه الأبراج إلى الهيكل، ومن أعلى هذا البرج كان جنود الاحتلال الروماني يراقبون ما يجري داخل معبد اليهود، الذي حظي من هيرودس أيضًا بالعناية فأعاد بناءه وزخرفته. وفي الجهة الجنوبية الشرقية استقر الملك المتهود (موناباز) وأُمُّه المتهودة أيضًا (هيلانة)، وكانا يحكمان قبل تهوُّدهما مقاطعة أديابين في بلاد الأكراد، شمال شرقي سورية، ثم تهودا ولجأا إلى أورشليم، فبنيا إلى الجنوب من جبل صهيون قصورًا ومقابر في غاية الإتقان.

كان اليهود في أورشليم لا يكفُّون عن مناوشة الحامية الرومانية

المعسكرة في قلعة أنطونيا، فأمر (أجريبا الأول) الموظفين الرومان بإحكام الرقابة على اليهود، والتشدُّد في معاملتهم، ووصَلَ الحقد إلى أقصاه بين الطرفين أثناء دعوة السيد المسيح، والفتنة التي أحدثها الكهنوت اليهودي حينئذٍ، وكان القيصر كليوديوس قد أمر ـ نكاية في اليهود ـ بوضع تمثال لنفسه في الهيكل، بقي في مكانه إلى أن مات هذا القيصر مسمومًا سنة ٤٥ بعد ميلاد المسيح.

* الخراب الثاني والأخير للهيكل وأورشليم:

دأبَ اليهود على خلق المشاكل للرومان، مشاكل ومضايقات صغيرة كانت متلاحقة ومفاجئة، فقرَّر الإمبراطور الروماني فسبازيان القضاء عليهم، وحلّ المشكلة كلها هذا الحل الجذري الدامي، فأرسل ابنه تيتوس على رأس جيش كبير للقيام بهذه المهمة، وبعد مؤامرات كثيرة قام بها اليهود، واستعملوا فيها كل شيء ـ حتى النساء ـ في تليين عريكة تيتوس دون جدوى، تَمَّ تخريب أورشليم في ٨ ديسمبر سنة ٧٠ ميلادية، وإجلاء جميع اليهود عنها، وهو (السبي الثاني) الذي ظلُّوا فيه من هذا التاريخ إلى سنة ١٩٤٨م عندما أعلن حاييم وايزمان قيام (إسرائيل).

ولكن بالرغم من أن تيتوس قد بذل أقصى الجهد في جعل عودة اليهود إلى سُكنى القدس أمرًا مستحيلاً، فإنّ من بقي منهم في فلسطين لم يكُفَّ عن التآمر ضد الرومان.

* كيف انتهى أمره بالدمار والزوال؟:

▢ يقول الدكتور حسن ظاظا: «وهذا الهيكل الثاني أيضًا انتهى أمره

بالدمار التام بعد إقامته بخمسة قرون على يد تيتوس الروماني.

يقول يوسفوس في كتابه «حرب اليهود» ـ الجزء الخامس، الفصل الرابع، الفقرة الثالثة ـ: «وكان تيتوس كلما وجد الجنود الرومان قد فرغوا من قتل جميع الناس في المنطقة التي يسيطرون عليها، أمرهم أن يخرِّبوا أورشليم ومَعبدَها وأن يَقلبوها ظهرًا على عقِب، فيما عدا الأبراج العالية التي كان يحرص على بقائها كشواهد على ما قام به من التدمير».

وهكذا امَّحت معالم هذا الهيكل أيضًا إلا بقايا نادرة، مع ملاحظة أنه عند وصول تيتوس كان هيرودس قبله بنحو قرن من الزمان، قد أدخل تعديلات وتغييرات على الهيكل الثاني، وعلى تخطيط المدينة نفسها، كانت وحدها ـ وبدون هَدم أو تدمير ـ كفيلة بجعل الوصول إلى التخطيط المعماري المبدئي للهيكل الثاني أمرًا يكاد مستحيلاً، بالرغم من كل المحاولات التي أراد الباحثون اليهود أن يخرجوا منها بمخطط معماري دقيق مستمد من عنعنات التلمود، ومنهم الأثري اليهودي (أيزنشتاين) مثلاً.

وأما ما جاء من جعل الصخرة الشريفة هي نَواة قُدُس الأقداس فقد بيَّنَّا الشكوك القوية التي تحوم حول هذا، وأولها ما ذكرناه من الاختلاف الشديد بين صخرة قُدُس الأقداس وصخرة المعراج النبوي المبارك من حيث الحجم والارتفاع عن الأرض.

وانطلاقًا من هذا المخطط التلمودي، ومع الوصف الذي أورده المؤرخ يوسفوس وغيره، نجدنا مضطرين إلى أن نسجل مرحلة ثالثة متطورة جدًّا من الهندسة الدينية اليهودية في حالة معبد أورشليم إبّان

ظهور المسيح.

هيكل هيرودس

❏وقد استفاد بعمق من العمارة اليونانية الرومانية، وكادت تختفي منه الملامح الدَّالة على أصله اليهودي تمامًا، وهذا الهيكل هو الذي دمره تيتوس ومحاه من الوجود سنة ٧٠ ميلادية، وحائط المَبْكى كان على الأرجح جزءًا من جداره الغربي، واليهود يحرصون على تسميته حتى الآن «الجدار الغربي».

❏في عام ٧٠م قام شغب في القدس، فحاصرها طيطوس الروماني وأعمل في المدينة النَّهب والحرق والقتل وأحرق المعبد الذي بناه هيرودس، ولم يَبقَ منه حَجَرٌ على حجر، وسيقت مئات الأسرى، وبيعت في أسواق الإمبروطورية الرومانية بأبخس الأثمان، وخلد الرومان نصرهم على اليهود بالعبارة اللاتينية المشهورة التي يُنادى بها عند إحراز أي نصر وهي «هِب، هِب هورا»، وهي مختصر عبارة «هيروشليما است برديتا». وهي اليوم قاصرةٌ على الانتصار في مبارة كرة القدم، ومعنى العبارة: «الآن سقطت أورشليم».

وبقيت القدس خَرِبةً مدة طويلة لا يسكنها إلا حاميةٌ رومانية.

❏ **«إيليا كابيتولينا».. لا أورشليم:**

وفي القرن الثاني الميلادي، سنة ١٣٦، قام «بَرْكوكبا»[1]، أحد

---

(١) بركوكبا: أي ابن الكوكب أو النجم. ثائر يهودي، ثار على الرومان حوالي سنة ١٣٠ - ١٣٦م وأراد طرد الرومان من فلسطين، وادّعى أنه المسيح المُخلص، وأزعج الرومان وأوقع=

نماذج الصهيونيـة القديمة، بثورة مسلحة ضد الرومـان، وسجل عليهم - رغم جيـشهم الإمبراطوري الجـرار - انتصارات براقـة في البداية، ولكن الإمبراطور إيليوس هَدِريان قام آخر الأمـر بإتمام ما بدأه تيتوس، فحاصر ما كـان بقي من القـدس، وهدم كل شيء في المدينة، ولم يتـرك فيـها يهوديًّا واحدًا، وجاء إلى مكان الهيكل فأقام عليه معبدًا لجوبيتر كبير آلهة الرومان، ووضع فيه تمثالاً لهذا الإله كالتمثال القائم في معبد الكابيتول، وقرَّر تغيير كل شيءٍ في هذه المدينة، حتى اسمها الذي أصبح مكونًا من اسمه هو واسم الكابيتول معبد جوبيتر الكبير، فسماها «إيليا كابيتولينا».

ومُنع اليهود من دخولها، وجُـعل الموت عقوبة من يُقدم منهم على ذلك، ثم سُمح لهم بالمجيء إليها يـومًا واحدًا في السنة، والوقوف على جدار بقي قائمًا من السور في الجزء الغربي من المدينة، وهو الذي يسمى (حـائط المبكى) ويسمـيه اليـهود (الجـدار الغـربي). وظل حَظر السكنى بالقدس قائمًا على اليهود قرونًا طوالاً، فقد ذكر ذلك يوزيبوس، المؤرخ المسيحي الذي زار (إيليا) - القدس - سنة ١٣٢ ميلادية، كما ذكره اليهود أنفسهم في تفاسيرهـم القديمة - المدراش - (سفر الجامعة - قوهيلت ربا).

❑ قال ابن البطريق (٣٢٨هـ) حول تدمير هدريان لبيت المقدس:

وهذا آخر خراب بيـت المقدس، فمن اليهود مَـن هَرَب إلى مصر، وإلى الجبـال والغور، وأمر الملك أن لا يسكن المدينة يهـوديٌّ، وأن يُقتل

= بهم، فجـهز له الإمبراطور هدريان جـيشًا قضى عليـه واستولى على القدس، ومـحا كل شيء فيها وغيَّـر اسمها، وقد أطلق اليهود على هذا الثـائر بعد موته: اسم «بركوزبا» أي ابن الكذاب.

اليهود ويستأصل جنسهم، وأن يَسكن المدينة اليونانيون، وأن تسمى باسم الملك «إيلياء» فسميت بيت المقدس منذ ذلك الوقت إلى هذه الغاية مدينة «إيلياء» فسكنها اليونانيون، وبنوا على باب المعبد المسمى «السبهاء» بُرجًا وصيروا فوقه لوحًا كبيرًا وكتبوا اسم الملك «إيلياء» والبرج اليوم على باب مدينة بيت المقدس ويسمّى «محراب داود». وهو مكان الهيكل المزعوم.

وهكذا فقد دمّر الرومان أورشليم مرتين: الأولى سنة ٧٠م على يد طيطوس، ومرة ثانية عام ١٣٥م على يد هدريان الذي حرثها ومسحها من عالم الوجود، وشتت أهلها، فكان أن عفت جميع الآثار اليهودية ولم يبق منها شيء، وانقطعت صلتهم بالقدس مدة ثمانية عشر قرنًا متواصلة، فلم يسكنها بعد عام ١٣٥م ولمدة ألف سنة يهودي واحد كما لم يكن فيها في القرون الخمسة التي تلت المدة المذكورة أكثر من خمسين يهوديًّا.

□يقول الدكتور حسن ظاظا في كتابه القيم «القدس»:

* هيكل جوبيتر (كبير آلهة الرومان):

على أثر الثورة التي قام بها في أورشليم ضد الحكم الروماني الزعيم اليهودي (بركوكبا)، جاء الإمبراطور هدريان ـ في أوائل القرن الثاني الميلادي ـ وأزال كل شيء يهودي في أورشليم حتى اسم المدينة كما قلنا، وعلى أنقاض الهيكل بَنَى معبدًا رومانيًّا لكبير الآلهة (جُوبيتر)، وأقام تمثالاً لهذا الإله وآخر للإلاهة (فينوس)، وجعل هذا الصرح على جبل أورشليم أشبه بمعبد الكابيتول الواقع على أحد جبال روما السبعة، ولذا أعطاه اسمه هو شخصيًّا (إيليوس) واسم

(الكابيتول)، وحرَّم استعمال اسم أورشليم وأحلَّ محلها الاسم الروماني الذي صنعه هو (إيليا كابيتولينا)؛ حتى أصبح اسم أورشليم لفظًا تاريخيًّا يُطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل.

وظلَّت المدينة تسمّى (إيليا) ولا يسكنها اليهود حتى الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي، حيث كانت المنطقة الوثنية التي أنشأها هَدريان قد خُرِّبت، وجاء ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ فأنشأ مسجدًا بسيطًا لجنده، هو نَواة الحرم الشريف والمسجد الأقصى، بعد أن كان الإسلام قد كرَّس تلك البقعة المباركة، بوحي قرآني، وبمعجزة الإسراء والمعراج.

□ولما اعتنق الإمبروطور قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) المسيحية جعلها ديانة الحكومة الرسمية، وجاءت والدته هيلانة سنة ٣٢٦م للعثور على مواقع الحوادث المهمة التي حدثت للمسيح، ولبناء الكنائس تذكاراً لها. وأمرت بهدم هيكل المشتري والتماثيل التي أقامها هدريان، وقامت ببناء كنيسة القيامة التي يعتقد المسيحيون بأنها ضمت قبر المسيح قبل رفعه إلى السماء، وتم افتتاحها عام ٣٣٥م.

وقد سمح قسطنطين لليهود بدخول المدينة مرة واحدة في السنة بعد أن كان دخولهم إليها محذوراً منذ عهد هدريان، وأعاد إلى المدينة اسم «أورشليم» في عام ٣٢٤م.

□بقيت القدس متمتعة بسلام طويل منذ طرد اليهود منها عام ١٣٥م إلى سنة ٦١٤م، وهي السنة التي جاءت فيها جيوش

الإمبـروطورية الفارسية فـاحتلت بلاد الشام ودخلت القـدس عام ٦١٤م بعد أن انضم إليهم اليهود، وأشعلت النار في كنيسة القيامة وسُوِّيت على الأرض.. وكان لليهـود دورٌ في عمليات الدمار والنهـب والقتل. وقدِّر عدد القتلـى من المسيحيين بالقـدس أكثر من ستين ألف نسـمة دفن نحو خمسة آلاف منهم في (ماملاّ).

◻ قال ابن الـبطريق في وصف هذا المشهـد: فأمـا خسرو ـ الـقائد الفـارسي، فـسـار إلى الشـام فـأخربـه، ونهب أهله، وصـار إلى بيت المقدس، فاجتمع إليه اليـهود من طبرية وجبل الجليل والناصرة، وجاءوا إلى بيت المقـدس فكانوا يُعـينون الفـرس على خـراب الكنائس، وقـتل النصارى، فلما صار إلى بيت المقدس، خرّبوا الكنائس وأحرقوها، وقتل اليـهود من النصـارى مـا لا تحصى كـثرتهم، وهم الـقتلى الذين ببـيت المقدس في الموضع الذي يقال له: «ماملاّ»[1].

◻ وفي عام ٦٢٧م، استطاع الإمبروطور هرقل أن يطرد الفرس من القـدس. وفي ١٤ أيلول من عـام ٦٢٨م احـتفل هرقـل بأورشليم برفع الصليب الذي كـان الفرس قـد نقلوه إلى بلادهم، بعـد أن استـرده من الفرس، ومـا زال المسيحـيون في مخـتلف أنحاء الشـام يحتفلون بعـيد الصليب في ١٤ أيلول من كل عام، ذكرى للاحتفال المذكور.

أما اليهود الذين انضموا إلى الفرس وانتـقموا من المسيحيين، فإنهم

(١) ماملاّ: مقبرة بظاهر القدس من جهة الغرب، وهي أكبر مقابر البلد. وتسميتها ماملاّ قيل إنما أصله «مأمن اللَّه»، ويـسميهـا اليهود (بيت مـلّو) والنصارى «بابيلا»، والمشـهور على ألسنة الناس «ماملاّ»، وهي من المقابر الإسلامية.

لم يحققوا أطماعهم في ظل الفرس، فانقلبوا عليهم، وراسلهم هرقل قبل خروج الفرس، وقدّم إليها وعداً بالتسامح، ثم وعدهم بالعفو، ولكن هرقل لم يف بوعده تحت ضغط رجال الدين الذين قالوا له: «إنهم سوف يتحملون المسئولية، وأن الاتفاقات مع الكفّار ليست واجبة التنفيذ، وعند ذلك وقعت مذبحة لليهود، لم ينج منها إلاّ الذين فرّوا إلى مصر أو الذين اختفوا».

◻وهكذا نجد أنه من سنة ١٣٥ ميلادية إلى سنة ٦٢٨م، من هدريان إلى هرقل، لم يعد لليهود وجود في القدس، وسوف نرى امتداد هذه الحال في القرون التالية بعد الفتح الإسلامي.. ورأينا أن مملكتهم المعتبرة، لم تكن إلا في عهد داود وسليمان عليهما السلام...

حوالي تسعين سنة... مع أن اليهود الذين جاءوا بعد داود وسليمان لم يكونوا على دين سليمان وداود؛ لأنهم خرجوا على التعاليم الإلهية، وقتلوا الأنبياء، وآخر جرائمهم مع الأنبياء قبل الإسلام محاولتهم قتل عيسى عليه السلام.

